

الدرة الثمينة في أخبار الرحلة إلى مكة والمدينة إفادات وفوائد في طريق الحج للشيخ عبدالمحمود الحفيان

أ.د. عبدالرحمن أحمد عثمان

مقدمة:

تهدف هذه الدراسة لتتبع طريق الحج الذي سلكه الشيخ عبدالمحمود بن الشيخ نورالدائم الطيبي، وأهم المراكز ونقاط الارتكاز في طريق حجه، ودور ذلك في التواصل والإتصال وما نقله من معارف وفوائد عبر هذا الطريق، وتهدف الدراسة لاستجلاء دور طرق الحج في نشر العلم بالسودان ومعرفة الأثر الراد على البلدان الإفريقية. تركز الدراسة على مذكرات الشيخ الحفيان ولكنها تستصحب المراجع السودانية مثل طبقات ود ضيف الله والروايات الشفاهية في منهج متداخل يحاول إثراء التراث الديني في شعيرة الحج وتبيان دور الحجيج في تأسيس الأسواق وحركة البيع والشراء بالإشارة إلى أثر الحجيج في التدامج والاندماج الثقافي والتواصل بين أجزاء القارة وخلق علاقات بين المسلمين.

تستصحب الدراسة الحج في تأسيس الممارسة الصوفية عبر عدد من الشخصيات السودانية في رحلة الحج للأراضي المقدسة ويربط كل ذلك بالآثار الاقتصادية والاجتماعية على زراعة القطن في منطقة شندي وانتشار الإسلام في السودان الشرقي وتأسيس الخلاوي. وتختتم الدراسة بعدة نتائج تركز على الآثار العلمية والتعليمية والدينية والاقتصادية لرحلة الحج انطلاقاً من فوائد الحج (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ). تقارن الدراسة بين دور طرق الحج ووسائله القديمة والحديثة وتخرج بتوصيات حول تعظيم دور الحج في نشر الوعي الديني بين المسلمين. لن تورد الدراسة مؤلف الشيخ عبدالمحمود كاملاً، ولأغراض الدراسة سنتنقي منه معالم الطريق في الحركة وتستنثني منه الاستطرادات الفقهية واللغوية والشعرية رغم أن ذلك يدل على علم غزير وامتلاك لناصية اللغة والأدب، وتعمل الدراسة على تحليل نصوصها بمنهج تحليل المضمون لتستخلص النتائج

رحلة الحج وأدب الرحلات (الرحلة الحجازية):

يقع مؤلف الدرة الثمينة في أخبار الرحلة إلى مكة والمدينة لمؤلفه الشيخ عبدالمحمود بن الشيخ نورالدائم الطيبي الملقب بالحفيان المولود في ١٢٦٠ هـ والمتوفي في - ١٣٣٣ هـ هذه الرحلة التي راجعها وقدم لها الشيخ عبدالجبار المبارك وخرج أحاديثها المدني محمد توم تقع ضمن أدب الرحلات في إطار ما عرف بالرحلة الحجازية وهو نوع من أنواع الأدب الذي تستمطر منه العلوم الاجتماعية والاقتصادية والدينية، ويوضح قدرة مؤلفه في اللغة والتواصل الجيد. وهو أدب يصف رحلات المسلمين إلى مكة والمدينة، ويلقى الضوء على معالم الطريق، ووجهاء القبائل والحكام. ويوضح طرق كسب العيش والمداخلات التجارية، واللغات كما تشرح شعائر الحج وأشواق المسلمين لزيارة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكما يقول محمد المسعودي في كتابه في وصفه الرحلة الحجازية بمؤلفه، الحج لبيت الله الحرام في أدب الرحلات يتميز بنقل مشاهدات الراحل لما حوته من ظواهر اجتماعية

وعمرانية ومعرفية وثقافية خلال رحلة العبور والانتقال بين الأمكنة، وتتبع أهمية دراسة الرحلات الحجازية في أدب الرحلات عامة ما يخلفه من علم ومعرفة بشعائر الحج وكما يقولون " شقة في البلد علم" ومن ذلك القول المنسوب للإمام الشافعي.

تغرب عن الأوطان في طلب العلا

وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

تفريج هم واكتساب معيشة

وعلم وآداب وصحبة ماجد

فإن قيل في الاسفار ذل وغربة

وقطع فيافي وارتكاب الشدائد

فموت الفتى خير له من حياته

بدار هوان بين واهي وحاسد

وقد حظى أدب الرحلات باهتمام كبير قديما وحديثا، ومن ذلك كتب الكشوفات الجغرافية عند الغربيين، تلك الكتابات التي وصفت الطريق إلى منابع النيل ووضحت المعالم للمبشرين الدينيين والشركات الاقتصادية والمستعمرين في التعرف على إفريقيا وساهم ذلك في نشر المذاهب المسيحية المتعددة في ربوع إفريقيا، إذ تعتبر كتب الرحلات من أوسع ابواب المعرفة والثقافة الإنسانية إذ إنها تصف الطبائع المفتاحية لثقافات الشعوب ومعتقداتها والإحاطة بالعادات والتقاليد، مما يجعلها في بعض الأحيان تبدو كعمل استخباراتي كما هو الحال في كتاب تشحيز الأذهان في بلاد السودان للتونسي، وكما يقول آدم عبدالله، فالرحالة الأديب كالة التصوير، يسجل لنا كل ما وقع عليه بصره، وكلما لمس شعوره مما شاهده أو اكتشفه من سكان الأماكن التي زارها، ويعرف آدم أدب الرحلات بأنه مجموعة القصص الأدبية التي تقص لنا ما شوهد أو وقع في رحلة من الرحلات. فالناظر في أدب الرحلات يتعرف من خلالها على بلاد وعوالم وبيئات وطرق حياة ويمدنا بمعلومات تاريخية وجغرافية تتخللها إشارات ومعلومات عن الحياة وعادات الناس وعن المدن والأنهار والجزر والجبال والأودية ومختلف الظواهر.

وبالعودة لرحلة الدرة الثمينة في أخبار الرحلة إلى مكة والمدينة، فإنه من الواضح أن الشيخ عبدالمحمود الحفيان الملقب بالاستاذ قد كان أديبا واسع الإطلاع وعالما فطحلا، ولا بد أن تكون قد وقعت بين يديه مخطوطات في زمن ندرت فيه الطباعة من أدب الرحلات من حجاج غرب إفريقيا، ولا سيما أنه كان ذا منزلة وطريقة صوفية اشتهرت بالكرم وحسن الاستضافة.

ويأمل هذا البحث بعد التأطير لمجاله والتعريف بأدب الرحلات أن يستخرج من كتاب الدرة الثمينة وصف الرحلة نثرا ويقف على واقع الحال بالسودان على عهد الكاتب والمنازل المشهورة وأوجه الأنشطة والأماكن واستخراج الدلالات التاريخية والاقتصادية والاجتماعية والجغرافية وفوائد هذه الرحلة بالنسبة للمسلم كما أشار إلى ذلك الله تعالى في قوله (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ

ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ{*} لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ
مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ{*} ثُمَّ لِيُقْضَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَأَلِيْفُهُمْ بِالْبَيْتِ
الْعَتِيقِ{*} (الآيات ٢٧-٢٩) سورة الحج

التعريف بصاحب الرحلة:

لعله من الأوفق أن نورد بين يدي كتاب الدرة الثمينة ترجمة للسيد الشيخ عبدالمحمود الحفيان، وأفضل من نستشف منه هذا التعريف هو الشيخ عبدالجبار المبارك لصلته بالبيت الطيبي إذ يقول: هو الاستاذ القطب عبدالمحمود بن الشيخ نورالدائم ابن (الشيخ عبدالقادر الجيلي الباز الأشهب) ابن القطب الغوث أحمد الطيب بن البشير (راجل أم مرجي) الجموعي الجعلي الهاشمي، أما من جهة أمه فهو ابن السيدة الليمون بنت ادريس بن أحمد(ضرغام) ابن آدم ابن الملك عمر (ابوزنتر) ابن المك جبلي أبوقرون بن المك عثمان بن المك عون الله بن المك اسماعيل بن المك عمر أبوجريدة المشهور بجبلي بن محمد الجعلي بن سرور بن احمد بن إدريس بن بشارة الملقب (برباط) جد الرباطاب فوالدة الأستاذ عبدالمحمود نورالدائم بهذه النسبة رباطبية وجدودها هم ملوك مملكة تقلي الإسلامية.

ولد الشيخ عبدالمحمود بن الشيخ نورالدائم في قرية أم طريقي(ود رملي حالياً) حيث كان والده يقيم مع أخواله الجميعاب وذلك في عام ١٢٦٠هـ. ونشأ في حجر عناية والده، وحفظ القرآن في خلوة والده بذات القرية، وتوفي والده وهو في عمر مبكر، وفي سن التاسعة رحلت به والدته مع إخوته الصديق والقرشي ودالزين إلى قرية طيبة الشيخ القرشي غرب الحصاصي، حيث أتم حفظ القرآن على يد أخيه القرشي ودالزين في سن الحادية عشر، وتلقي مبادئ العربية نحواً وصرفاً وأدباً وبلاغة، كما تحصل علوم العقيدة والفقهاء على أستاذه الشيخ محمود ود زروق، وتلقي علوم التصوف والسلوك على خليفة الشيخ أحمد الطيب ود البشير وكان وقتئذ الشيخ القرشي ودالزين، وتدرج في مدارج السالكين حتى نال اعتراف أساتذته فإجازه الشيخ القرشي والزين الطريقة السمانية مريداً وشيخاً، وقد آلت إليه مقاليد الطريقة السمانية بعد وفاة أخيه الشيخ القرشي، وقد ألف العديد من المؤلفات الفقهية والشرعية والروحية، وفاقته مؤلفاته خمسة وثمانين مؤلفاً في اللغة والتصوف مكنته بعون الله وتوفيقه من الارتقاء في مدارج العطاء العلمي الملحوظ ليكون من قلائل السودانين المكثرين في التأليف.

ينتمي الشيخ عبدالمحمود نورالدائم للطريقة السمانية الطيبية وهي من كبريات الطرق بالسودان، وهو من ألمع خلفاء هذه الطريقة، فقد شَيَّحَ بها كثيراً من الشيوخ، وسلك على يديه الطريق الصوفي كثير من المريدين ويعتبره الباحثون (عبدالجبار المبارك) أقوى شخصيات الطريقة السمانية تجديداً وتأصيلاً للمذهب الصوفي وأكثرها عطاء علمياً إلى جانب نشره للطريقة في كافة أنحاء السودان إلى جانب تفرده في ملكة النظم الشعري وتجويد النثر وكانت وفاته بطابت ظهر الأربعاء الرابع عشر من ربيع الثاني عام ألف وثلثمائة وثلاث وثلثين للهجرة (١٣٣٣هـ).

الطريقة السمانية:

أهل الطريقة السمانية بالسودان قوم من المشتغلين بالعبادة من أهل التصوف المتحابين لا تفرق بينهم أهل أبناء الروح وأبناء الجسد، أعلام بلغوا درجة عالية في مدارج القرب الإلهي بشهادات الأذواق

لا شهادات الأوراق. ونهلوا من بحر تتأبى فيه المعاني الذوقية على القيد اللغوي، إلا بضرب من الصيرورة الوجودية في تنزلات البيان العربي. قوم اختصهم الله بعلم الفتح ومحبة الرسول الشيخ أحمد الطيب والبخير والشيخ القرشي والزين والشيخ عبدالمحمود ود نورالدائم صاحب الذرة الثمينة والشيخ عبدالقادر الجيلي (الباز الأشهب) ألفوا عشرات المؤلفات، وأضحت آثارهم العلمية منهجا للتزكية، وطريقا للسلوك وموردا لدقائق الحقائق.

وللسمانية مشيخة بأم درمان يقودها أعلام صاموا وقاموا وبذلوا الجهد وسهروا وتعلقوا بالذات العلية حتى أضحت بهم السمانية قبلة للمثقفين، الشيخ قريب الله والشيخ الفاتح وابنه الشيخ البروفيسور حسن الفاتح قريب الله وإخوانه عرفوا التصوف لغة، وعرفوه علما، وعرفوه سلوكا، الليل عندهم مطية السائرين إلى ربهم، ومن ليس له نصيب من الليل ليس له حظ من طريق أهل التمكين.

والسمانية في شبشة الشيخ النور من الشيخ برير والشيخ الخليفة إبراهيم والشيخ الأمين ابن الشيخ إبراهيم ومن آثارهم الشيخ السمانى بالعرشكول ومن تلاميذهم الشيخ عمر محمد الصافي المعروف براجل الكريدة غرب الكوة أقام المساجد لتعليم القرآن الكريم والفقهاء وتربية المريدين، وقد تتلمذ عليه الشيخ وقيع الله والد الشيخ البرعي.

ولهم في رمال كردفان بذرة نمت وترعرعت وأصبحت دائرة جذب عميقة الغور، عمقها بعمق محبة الرسول صلى الله عليه وسلم في نفوس أصحابها، تغنوا بأفضاله وكريم خصاله، فأضحت الزريبة بهم بقعة مباركة في أرض السودان الذاكر، يعرفها القاصي والداني، يتقاطر إليها الناس من شتى بقاع الأرض.. كيف لا وقد أحالها الشيخ عبدالرحيم البرعي وأسلافه الميامين من أرض خلوية بمكان قفر إلى ديار عامرة تعج بالحياة وتنض بالحوية وتتعطر أجواؤها وسمواتها دوما بالتهليل والذكر والتكبير وتلاوة القرآن.. وكم هو آخذ بمجاميع القلوب مرأي مجموعات الصبية واليافاعين وهم يتوجهون إلى صلاة الفجر مهللين ومكبرين.. فهذه القرية الغراء، أشبه ببؤرة ينبثق منها شلال نور حتى يبلغ عنان السماء، ثم تتهمر قطراته تغطي كل أرجاء الوطن فتغمره بالبركات، وقد بلغت مساهمات الشيخ البرعي بناء العديد من المساجد والمؤسسات التعليمية وساهم في بناء معامل الجامعات وبنى المراكز الإسلامية وعقد في ليلة واحدة خمسة آلاف زيجة.

وفي جبل الأولياء: قمة للسمانية سمقت وطالت وطابت، واستقرت بقرية الروضة، الشيخ الياقوت وابو الشيخ محمد وجده الشيخ مالك وجد أبيه الشيخ الإمام، أخذوا الطريق السمانى عن الشيخ محمد نور راجل ريبه عن الشيخ التوم ودبانقا، أقاموا المساجد وعمروا الخلاوي وحفظ القرآن على أيديهم خلق كثير، ولهم في العلاج الروحي ذراع وباع ولهم تفتح ودراية بعلم العصر ومقتضياته، أسسوا الزوايا والخلاوي وخاطبوا الناس بوسائل النقانة الحديثة.

هذه هي الطريقة التي ينتمي إليها الشيخ عبدالمحمود وهو أحد ركائزها.

نص وثيقة الدوحة الثمينة في اخبار الرحلة إلى مكة والمدينة

تقع الرحلة في عدة فصول ومباحث مقسمة على طول الطريق إلى مكة بدأ الكتابة من قريته التي أسسها وكبرت على يديه طابت الشيخ عبدالمحمود وانتهى به في قريته.

الرحلة من طابت المحمية إلى الخرطوم:

يقول الشيخ عبدالمحمود في هذا القسم من الرحلة " أعلم أن الله تعالى لما منّ علينا بالحج وزيارة النبي صلى الله عليه وسلم بفضله وكرمه كان ذلك من طابت المحمية في يوم الخميس رابع يوم من ذي القعدة سنة أربع وعشرين من سنين العمرة بعد الثلاثمائة والألف وقد اقتدينا في سفرنا في يوم الخميس بالشارع صلى الله عليه وسلم فإنه كان لايسافر إلا فيه كما في رواية الشيخين، وإن ذكر بعضهم انه سافر في يوم السبت في بعض أسفاره.

وقد خرج معي في ذلك اليوم من الأمم ما لا يحصي عددا، وقد اشتد عليهم فراقنا فمنهم الباكي ومنهم الصارخ ومنهم غير ذلك، ولم يزلوا معنا على الحالة المذكورة إلى أن وصلنا إلى القرية المسماة بالولي، فتلقنا أهلها وانزلونا في منازلهم وأكرمونا وانشرحت صدورهم بنا كثيرا.

ثم إننا من بعد طلوع شمس اليوم الثاني قد سافرنا من القرية المذكورة ولم يزل العالم متراكما علينا إناثا وذكورا، إلى أن وصلنا القرية المسماة بولد بترّو، بفتح الباء الموحدة وتشديد التاء المثناة ثم راء مضمومة، فتلقنا أهلها بالمحبة والاشتياق وكل واحد من أختارها وفضلاتها يود نزولنا عنده إلى أن افترقوا في طلب ذلك فرقا كادت أن تثير بينهم فتنة وما ذاك إلا من شواهد كرمهم ومحبتهم لنا لا غلا ولا حسدا، ثم اتفقت كلمتهم على أن يكون نزولنا عند خليفتنا الشيخ الخضر بن الحاج محمد، فأقمنا بمنزله بقية النهار وليلة اليوم الثالث وضحوته، وقد بالغ أهل تلك القرية في إكرامنا واکرام أصحابنا ومن معنا، ولاسيما الشيخ الخضر المذكور، والفاضل الشيخ عبدالله بن محمد بن إمام، فإنه قد جاء من محله هو واخوانه وعشيرته بهدية وذلك بعد أن طلبنا إلى محله وعذرنا لنا للمضايقاة الحاصلة في أمر السفر، جزى الله تعالى عنا هؤلاء وغيرهم ممن قبلهم وبعدهم بأسباب كرمهم لنا خير الجزاء، وكذلك جميع من وصلنا شيء منه ولو قليلا وإنّا بحمدالله تعالى قد دعونا للجميع بإصلاح الحال وبلوغ الآمال في محلات الإجابة بالحرمين الشريفين مكافأة لهم للحديث الوارد في ذلك عنه عليه الصلاة والسلام وهو " من أتى إليكم معروفا فكافئوه "، الحديث.

وفي هذه القرية قد جاءنا الكواهلة أهل العديد، طالبين لنا بالتوجه إلى محله المذكور ومنهم المقدم فضل الله بن دفع الله، وأخيه العمدة الشيخ مصفي، والصدیق، وغيرهم فذهبنا معهم جبرا لخاطرهم وإرضاء لنفوسهم ومعنا جمع كبير فأنزلونا في بيوتهم وبالغوا في إكرامنا وإكرام ذلك الجمع مع ما أوصلوه إلينا من الهدية.

ثم جاءنا أهل قرية ولد الماجدي، يطلبون قدومنا معهم لأجل حصول البركة، وهم الشيخ مصطفى ولد على ولد نعيم، أحد الخلفاء في الطريقة، وكذلك الشيخ الجيلي بن الخليفة أحمد، والفاضل جميل الله أحمد، فتوجهنا معهم، وقبل وصولنا تلقنا على مسافة بعيدة الخليفة أحمد بن محمد، خليفة ولد الماجدي مع كبره وعجزه، وقد أحب أن يكون نزولنا عنده واشتد في ذلك حتى امسك الدابة التي أنا عليها بنفسه، فاستحيت منه ووافقته على غرضه في أن يكون نزولنا عنده لكن شرطنا ألا يكون للطالبين لنزولنا سابقا عندهم إلا هذا اليوم وحده، فقبلوا قول قسمنا اليوم بينهم على ثلاثة أقسام القسم الأول عند الخليفة المذكور، والثاني عند الشيخ مصطفى ولد على نعيم، والثالث عند جميل الله أحمد، فرضوا

بذلك، وافينا جميع شروطنا معهم وقد حصل لنا من هؤلاء المذكورين وأهل قريتهم إكرام دل على الإخلاص وصدق المحبة، وقد أخذ علينا الطريقة في هذه القرية أمة من الناس.

ومن قبل خروجنا منها جاءنا ولدنا المبارك الشيخ مصطفى إبراهيم، بقصيدة أنشأها من نفسه يمدحنا بها فجزاه الله تعالى خيرا على حسن ظنه بنا، وإن كنا لسنا أهلا وقد جاء في بعض القصيدة قوله:-

أمام الهدي محمود شيخ طريقنا وقطب أولي العرفان بدر الدجنة
تجلي له الباري بكنه جلاله فكدت به جبال الجبله.. الخ

ثم من بعد إكماله القصيدة طلب منا القدوم إلى محله والجمع لازال يزداد فذهبنا معه وقد سهر الفقراء ليلة وصولهم عنده بالذكر فحصلت للذاكرين بركة ونفحات، والمذكور بالغ في إكرام الجيش طعاما وشرابا. ومنه صار سفرنا وقد لحقنا في أثناء الطريق العمدة الفاضل الشيخ خلف الله ولد تاتاي الجعلي، وأهدي لنا شيئا للاستعانة على الحج ثم وادعنا ورجع، ولم نزل مسافرين إلى أن صار نزولنا عند الشيخ أبي عاقلة، خليفة الولي الكامل الشيخ حمد ود الترابي فاعتني بنا وأكرمنا، ونحن بمنزل الشيخ المذكور قد ورد علينا كتاب من حضرة مأمور مركز الكاملين، مضمونه التأسف على عدم لقائنا ونزولنا عنده مع ترقبه لذلك وتهيئة منازل لمزيد من التبرك والدعوة الصالحة له وغير ذلك مما يشهد بكمال محبته، وقد رددنا له ما هو لائق بمعنى جوابه ومحبته.

ومن هنا صار سفرنا ونزولنا من افاضل إلى فاضل إلى أن حطت رحالنا لدي الفاضل الشيخ على محمد الكناني، ببيري، فأقام بحقنا أتم قيام، وكذلك صهره خوجلي بن أحمد، وقد بالغوا في إكرامنا على وجه الإخلاص والمحبة والأدب الكامل، وفي مدة إقامتنا بمنزل الشيخ المذكور قد زارنا صاحب المآثر الجميلة والهمم الجليلة، سعادتلو الزبير رحمة باشا، أدام الله عليه نعمه وكفاه نغمه، ثم بعد زيارته لنا زرناء بمنزله الذي بالخرطوم ورجعنا إلى بيري.

مقابلة الحاكم العام في الخرطوم:

ولم نزل بمنزل الشيخ المذكور إلى أن جاء أو أن سفر الوابور السواكنية، فذهبنا لسعادتلو الزبير رحمة باشا بقصد الوداع فاستحسن مقابلتنا للحاكم العام ونجت باشا، فاستأذناه في السفر إلى الحج وزيارة النبي صلى الله عليه وسلم، فإذن من أول مرة على إنشراح قلب وطيب نفس. ومن ثم توجهنا إلى الحلفاية، الشرقية التي على شاطئ النيل فالتقي بنا ولدنا عوض أفندي بن محمد الكردي، فأنزلنا بمنزله وأكرمنا ومن معنا، واجتمع بنا في منزله خلق كثير منهم من جاء للزيارة والبعض منهم لأخذ الطريقة، وقد أجزنا منهم جماعة وبتنا عند تلميذنا المذكور تلك الليلة وفيها جاء لاحقا بنا الزبير رحمة باشا وتلميذنا السيد محمد الامين بن محمد عمار بقصد الوداع، وقد أهدى لنا تلميذنا المذكور شيئا من الفلوس، وقد بات المذكوران معنا إلى أن أصبح الله بالصبح.

من الخرطوم إلى سواكن:

ودخلنا الوابور ومحنلا منها أعز موضع وأشرفه، وقد صحبنا في هذا السفر جماعة من التلامذة وأولادنا كالشيخ حامد بن محمد العباسي، وولدنا الشيخ احمد الطيب، والشيخ عبدالله بن محمد بن إبراهيم، وغيرهم وعددهم يبلغ عشرين ونيفا، وقد صحبنا من الفضلاء في السفر المذكور جماعة من أعيان البلاد، كالفاضل الكامل الشيخ محمد التوم بن الشيخ طلحة بن حسين، الفولاني، وغيره من الفضلاء، ثم إن الوابور سافرت بنا عند طلوع الشمس إلى العشاء الآخرة، وعندها وصلت بنا الداخلة وقد قطعت في سبورها هذا محطات الخرطوم البحري، ثم الكدرو بضم الراء، ثم قبة الكباشي، ثم ولد رملي، ثم الرويان، ثم جبل جاري وهو المعروف بجبل قري بفتح القاف وكسر الراء المشددة، ثم الميجة وهي فص الأصل الميكمة وإنما غيرتها الألفاظ كما غيرت قري بجاري، ثم بان النقاء ثم القوز، ثم شندي وقد جنناها أول الظهر، ثم التراجمة، ثم كبوشية، ثم جبل أم على، ثم المحمية، ثم العالياب، ثم عشرة محطة وباتت بنا الوابور في الداخلة المذكورة وسافرت بنا منها ضحوة الأحد وليلة الإثنين وعند أول ظهر اليوم الواقع أننا عشر يوما من سفرنا من محلنا قد وصلت بنا سوان، وقطعت في سيرها هذا الداخلة وتسمى أنبرة كما ذكرنا، ثم الزلظ، ثم اليهودي، ثم الدوجايا، ثم الحديقة، ثم أوجرين، ثم الذهب، ثم توجنا ثم سقديت ثم الروجل ثم مسمار ثم مياس ثم تلجواريت ثم شدياب ثم كاس ثم إنها، ثم هيا، ثم تهاميم، ثم أورهيبي، ثم براسيت، ثم براميو، ثم سكن، ثم صمت، ثم سنكات، ثم أديت، ثم جيبيت، ثم قمتيب، ثم إريا، ثم اسوت، ثم كموسانة، ثم اكوات، ثم أويو، ثم أدارويب، ثم سلوم، ثم هندوب، ثم الشاطة، ثم سواكن.

لقاءات ومباحثات في سواكن:

وكان نزولنا في سواكن عند الرجل الفاضل الكريم الشيخ محمد الطاهر بن محمد كشنة واجتهد في إكرامنا ورعايتنا، وله أطل الله بقاءه أخلاق جميلة وانه تأوي الحجاج في هذه البلدة لأحد مثله، وذلك لفضله وقيامه بخدمتهم وصدور الضمانة منه لهم إذا احتاجوا إليها مع سعيه لهم بالحسنة، وقد أحسن معنا الأدب وأنزلنا في بيته الخاص به وأكرمنا ورعانا فجزاه الله خيرا.

ونحن بمنزله فقد اتصل بنا الشاب المبارك محمد المجذوب بن حمد تينة بن محمود، ورأينا منه نية صالحة وخدمنا بقية أيام إقامتنا بسواكن خدمة خالصة ليس له فيها قصد إلا وجه الله تعالى.

وايضا اجتمع بنا ونحن بالمنزل المذكور الأخ الفقيه عبدالسلام بن الفقيه محمد بن الحاج حمد التيجاني، وهو مبارك جدا وعلى بصيرة في دينه، وجرى بيننا وبينه كلام في الطريقة فحصلت منه فينا محبة قل أن توجد في أبناء هذا الزمن، وذلك لطلبه للحق وقوة إيمانه، وقد حكى لي ونحن في أثناء كلامنا معه أنه سمع والده المذكور يقول: - سألت شيخنا الولي الكامل العالم الفاضل الشيخ سعدالدين الفولاني رحمه الله تعالى عن أكمل ولي في بلاد السودان قال:- الاستاذ أحمد الطيب بن البشير قدس سره.

ثم قال لي ومصدق هذا الكلام ما حدثتني به المرأة الكريمة الفاضلة أمونة بنت عبود، زوجة الشيخ الأزيرق رحمهما الله تعالى، فقالت: أن جميع ما حصل لي من سعة الدنيا وعمل الآخرة فهو من بركة سيدي الشيخ أحمد الطيب رضي الله عنه وذلك أنني قد زرته في صغري مع والدي فقالت له

والدتي: أدع الله تعالى أن يرزق ابنتي هذه خيرا وزوجا مباركا، قالت: فوضع يده الشريفة على رأسي وقال: وهبتها خير الدنيا والآخرة، فكان الأمر كما قال قلت: وهذا من شواهد قطبانية الأستاذ وقوة همته العرشية وأسراره الإلهية وأنفاسه الربانية.

وصف مدينة سواكن:

ولنرجع إلى ما نحن فيه من ذكر سواكن، أعلم أن هذه المدينة واسعة جدا وفيها تجار وأغنياء وأغلب أهلها مائلون إلى حب الدنيا والتلاهي بها والتشاغل والغالب من لغاتهم الرطانة، وطعامهم الذي يقتاتونه اللحم والأرز، وماؤهم ملح تتغير به الطباع ولهم ماء عذب في مكان مخصوص لا يتوصل إليه إلا بالشراء وهو في خارج المدينة، وأما ما بداخلها فهو ضار بالمقيمين ولاسيما الغرياء وفي البلدة المذكورة ثلاثة جوامع تقام فيها الجمعة:

١- جامع العارف بالله تعالى الشيخ محمد المجذوب، ولد قمر الدين رضي الله عنه.

٢- جامع السادة المراغنة، نفع الله بهم ويقرب مسجدهم هذا قبر السيد تاج السر بن السيد سرالختم.

٣- مسجد الشناوي بيك.

وأكثر اعتقاد أهل هذه البلدة في السادة المراغنة وبعضهم في الشيخ محمد المجذوب، وأما القطب العظيم الاستاذ الفخيم سيدي الشيخ ابوالفتح الشاذلي، رضي الله عنه فهو مدفون خارج البلدة لكن قريب منها، وعليه قبة وله بركات مشهورة وكرامات مذكورة نفعنا الله تعالى به، والدعاء عند قبره مستجاب وقد جرب، ومدفون جوار قبره الاستاذ سيدي الشيخ عبدالرحمن، بن القطب الأعظم سيدي الشيخ احمد الطيب قدس سره، وكانت وفاته بعد رجوعه من الحج عام تسعة وثمانين من بعد الألف والمائتين.

ثم بعد إقامتنا المذكورة صار توجهنا إلى الوابور من بعد ما أخذت منا الأجرة، الخاصة بنا ومن معنا من التلامذة والأولاد، وكذلك الأمنية والكرنتينة، والبيزورت، وذلك خاص بكل واحد من الحجاج سواء كان صغيراً أو كبيراً، وجملة ما يؤخذ من الشخص الواحد ستة عشر ريالاً ونصف ريال، عشرة منها في الابنية، واثنان عشر قرشاً ونصف قرش في البيزورت وثلاثة قروش في الكرننتينة، وكان دخولنا ظهر الاربعاء، وهو الرابع والعشرون من ذي القعدة.

عبور البحر الأحمر

ويصف الشيخ عبدالمحمود في هذا الجزء رحلته داخل البحر الأحمر من سواكن إلى بورتسودان التي أشار إلى أنها كانت تسمى قبلئذ بالشيخ برغوث في رحلة إلى ميناء جدة استمرت نحو من ثمان عشرة ساعة.

واصفا اجراءات تعقيم الحجيج، قائلاً:

ثم بعد دخولنا في الوابور قد بتنا فيها ليلة الخميس إلى ضحوة يومه، ثم سافرت بنا إلى أن وقفت في بورت سودان وهي المشهورة قديماً بالشيخ برغوث، ووقفها هذا الأمر خاص بها ثم بعد مغيب شمس يوم الخميس سافرت بنا ليلة الجمعة وعند ضحوتها قطعت بنا مسافة البحر.

ثم جاءت السناييك وهي سفن صغيرة حملتنا إلى موضع في جزائر البحر قريب من الساحل فيه بناء ومدير وعساكر من جهة السلطان عبدالحميد خان الأمراء المختصون به في ذلك المحل وهو الكرنيتينة لتبخير ثياب الحجاج بالابخرة المعلومة لديهم زعما بأنهم يذهبون بتلك الابخرة الأمراض عنهم وفعلوا ذلك لبعض الحجاج وأما نحن فقد حفظنا الله تعالى منهم فلم يستطع أحد أن يتوصل إلينا بذلك، وكذلك جميع من رأوه محرما من الحجاج.

ثم توجهت بنا السفن إلى بر مدينة جدة بضم الجيم فجاءنا العساكر عند وصولنا إلى البر وأدخلوا الناس في حصن من الأحطاب له طريقان الأول يتوصل به إلى الثاني، والدخول فيه بريال أبي عشرة والخروج من الطريق الثاني بقرشين، وأن وصول للحجاج إلى مدينة جدة إلا بهذين الطريقين. أيام في جدة:

وصف الكاتب حياته بجدة وزياراته ووقف السيد أحمد بن إدريس قائلاً: ومن بعد خروجنا بتنا ليلتين في المدينة، ثم إنقلنا إلى محل ظلمة بفتح الظاء المشالة واللام ثم ميم بعدها هاء ساكنة، وهذا المحل كان سابقا ينزل فيه السيد أحمد بن أدريس، رضي الله عنه، وقد أمر السيد أحمد ظلمة أن يبني فيه بناء للحجاج، فبناه قاصدا به وجه الله تعالى.

وكذا في مدة إقامتنا بجدة قد سألنا عن أهل الطريقة السمانية فوجدنا فيها رجلا مباركا يقال له الشيخ عبدالقادر بن الشيخ محمد صالح بن الشيخ عبدالغفار تلميذ الشيخ أبي الحسن، السماني، وشهرته بين أهل جدة بقدره فطلبنا إلى منزله.

ثم رغبتنا أن نزور قبر سيدي الشيخ صديق بن عمر خان، تلميذ القطب سيدي الشيخ محمد بن عمر خان تلميذ القطب سيدي الشيخ محمد بن عبدالكريم السمان رضي الله عنه، فذهبنا إليه وذلك ليلا فوجدنا باب الزاوية التي هو بها مغلقا، وما وجدنا هناك خليفة ولا تلميذا لأن خلفاء الشيخ وتلاميذه قد انقرضوا في هذا المحل وليس له ذرية، لا ذكر ولا أنثى، ثم رجعنا إلى منزل الشيخ عبدالقادر المذكور ومنه إلى محل نزولنا سابقا.

وصف مدينة جدة

يصف الشيخ عبدالحمود ذاكرا الإزدحام السكاني ومساجدها والطرق الصوفية بها وأسماء الحارات والعمارات المرتفعة قائلاً:

وأعلم أن مدينة جدة هذه بلدة واسعة مملوءة بالخلق، وهم على أصناف متعددة وأجناس مختلفة لا يعلم مداهم إلا الله تعالى والغالب عليهم البيع والشراء، وفيها خمس جوامع تقام فيها الجمعة وهي:

١- مسجد الشافعي.

٢- مسجد الحنفي

٣- المعمار (بكر الميم وسكون العين المهملة)

٤- مسجد عكاشة بتشديد الكاف

٥- مسجد الباشا

وفيها من الزوايا ما يزيد على عشرين زاويا منها ما هو منسوب لسيدي الشيخ مصطفى البكري ومنها ما هو منسوب لسيدي الشيخ محمد السمان، والشاذلي والسنوسي وابن ادريس الفاسي، وغير ذلك وفيها أربع حارات:

١- حارة اليمن.

٢- حارة البحر.

٣- حارة الشام

٤- حارة المظلوم، والمظلوم المذكور رجل صالح مثل ظلمة وقبره في المدينة هذه وقد زرناه. وأهل هذه البلدة يطيلون البناء جدا وربما قارب بعض بناياتهم نحو المائة ذراع وعليها سور ولها أبواب عليها عساكر وشرابهم من ماء الأمطار. الأحرام من جدة. ثم أحرمانا من محل نزولنا في برها ولا يخفي علينا قول بعض العلماء أن الأحرام يجب أن يتم في البحر عند محاذاة الجحفة فقد تبعنا في احرامنا هذا بعض النصوص القائلة بذلك قال سيدي احمد زروق رحمه الله تعالى في شرح الرسالة: لا يحرم بحري إلا بعد نزوله على الساحل لاحتمال رده بالريح.

في طريق مكة

ثم من بعد الأحرام والتلبية قد توجهنا إلى البيت الحرام فبتنا في بحره بفتح الباء وسكون الحاء وفتح الراء وهي في موضع فيه بعض جند من العساكر يأتون لمن نزل عندهم من الحجاج بالماء والحطب وماؤهم ملح.

وأعلم أن طريق الحجاج من جدة إلى مكة المشرفة كثير الماء والطعام، وذلك أن العساكر المرابطين هناك لهم مواضع، كل موضع قريب من الآخر، وفي كل واحد قهوة وطعام وشراب للذي يشتري والبعض للأجر والثواب فقط لا شراء فيه ولا بيع، وأيضا من مكة إلى منى، ومن منى إلى عرفة. حمام الحرم في الإستقبال، وقد أعجب الشيخ عبدالمحمود بحمام الحرم حتى جعله من معالم رحلته قائلا:

ثم في بحره حصل منا السري ليلا، فلما اقتربنا من مكة ضحوة من النهار تلقانا حمامها ونزل ما بيننا ومكث مدة من غير استيحاش منا، فأخذنا من ذلك فألا، ثم إني أنشدته:-

| | |
|------------------------|-----------------------|
| أيا حمام الحرم المشهور | قد جئنا بكامل السرور |
| وما أتيت إلا بأمر | مصلحة للنفس والضمير |
| سر ولكن ليس يدريه سوي | حبر همام كامل نحرير |
| مظهر القلب من الأغيار | مستغرق في حضرة القدير |

في الغسل لدخول مكة:

وبعده بيسير جاءنا المطوفون وساروا معنا إلى أن دخلنا مكة، وقد سلطنا عند دخولنا طريق البئر المشهورة بطوى للاغتسال منها، وحكم الغسل هذا أنه هو الغسل الثاني من اغتسالات الحج، وحكمه الندب، وكذلك الغسل الذي قبله، وأما طوي المذكور فهو الوادي الذي تحت الثنية العليا وهو بفتح الطاء

مقصود كما قال الاصمعي وضبطه في توضيحه بتثليث الطاء، والفتح أشهرها، وحكي القرطبي عن ابن بطال فتحها مع المد.

ثم من بعد الأغتسال بادرنا إلى دخول المسجد بباب بني شيبه المعروف الآن بباب السلام وكان يعرف قبل بباب عبد شمس وعبدمناف وهو من ثلاثة أبواب.

ويستحضر عند رؤية البيت من الخشوع في قلبه والخضوع في جوارحه ما أمكن لأن هذه عادة الصالحين وعباد الله العارفين لأن رؤية البيت تذكر وتتشوق إلى رب البيت ولا يركع الحاج تحبة المسجد لأن تحيته الطواف.

وعند وقوع بصري على هذا البيت العظيم قد دخلت هيئته في سويدا قلبي وسرى حبه في كلي ولبى.

في التوجه إلى منى:

فإذا كان اليوم الثامن أحرم فيه من لم يكن أحرم قبل ذلك، ثم يتوجه إلى منى إن لم يكن يوم الجمعة، وإلا فلا يتوجه إلا بعد صلاة الجمعة لوجوبها عليه إن كان مقيما، وأما المسافر فأولي به الإسراع للمناسك، وقدم بعضهم الجمعة لأدرك فضيلة الحرم.

ويسن لكل من ارد التوجه إلى منى أن يتوجه إليه بقدر ما يدرك بها صالحة الظهر فإذا وصل إلى منى نزل بها حيث شاء، ويسن المبيت بها وأن يصلي الظهر والعصر والمغرب والعشاء كل صلاة في وقتها قصرا إلا المغرب واستحدث بعض العلماء النزول بمسجد الخيف فيصلّي فيه الصلوات المذكورة ويتنفل عنه الأحجار التي بين يدي المنارة فإنه يصلي الله عليه وسلم صلى ثمة، كذا البنائي على منسك الحطاب.

ويذكر الشيخ عبدالمحمود أنه نزل بمسجد الخيف وصلى به قائلا: أقول وأنا بحمد الله تعالى قد نزلت في ذلك المسجد وصليت فيه الصلوات المذكورة مع المبيت وإحياء هذه الليلة بقدر الطاقة بالدعاء وغيره، وهذا المسجد المذكور كثير البركات، شهير الخيرات، قد نزل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى، ويواصل الشيخ عبدالمحمود وصف شعائر الحج قائلا:

في النزول بنمرة:

فإذا وصل الحاج إلى عرفات يندب له النزول بنمرة، بفتح النون وكسر الميم وراء مهمله ويجوز أسكان الميم مع فتح النون وكسرها، قال الفاسي عن المحب الطبري موضع بعرفة وهو الجبل الذي عليه أنصاب الحرم على يمين الداخل من المأزمين، وقد كانت عائشة رضي الله عنها تنزل بها ثم تحولت إلى الأراك.

في خطبتي يوم عرفة:

ويستحب للإمام أن يخطب بعد الزوال خطبتين، وفي توضيح المناسك، فلو خطب قبل الزوال وصلى بعده أجزاء (ابن عرفة) ولو صلى بغير خطبة أجزاء، أبو عمران إجماعا، كذا في الخرشى، ثم أن يجلس بين الخطبتين ويعلم الناس فيهما ما يفعلونه إلى اليوم الثاني بمنى ويقية مناسك الحج التي تفعل إلى اليوم الثاني بمنى من صلاتهم الظهر والعصر قصرا وجمعا بعرفة ووقوفهم بها وما له من الآداب ويحضهم على إكثار الدعاء والتهليل بالموقف وكيفية دفعهم من عرفة بعد الغروب، ومبيتهم بمزدلفة،

وجمعهم بها بين المغرب والعلماء مع قصرها، ووقفهم بالمشعر الحرام والدفع منه إلى منى، والإسراع في وادي محسر ورمي جمرة العقبة، والحلق والتقصير والنحر والذبح وطواف الإفاضة.

في العمرة:

ثم من بعد إقامتنا وملازمتنا للحرم للصلوات وغيرها قد ذهبنا للتعميم مع العمار للعمرة، وهي شرعا عبادة يلزمها طواف وسعي وإحرام فقط اه - خرشي وفي العدوي وفي مشروعية العمرة قبل الحج قولان أه.

في طواف الوداع:

ثم من بعد فراغنا من الزيارة المذكورة قد طفنا طواف الوداع وأعلم أن هذا الطواف شرع للخارج من مكة، وأما المقيم بها فلا يشرع في حقه وهو مندوب ثم إنه ليس مقصود لذاته، بل ليكون آخر عهد الحاج بالبيت، ويبطل التوديع إقامة ما زاد على ساعة فلكية بشرط أن تكون الإقامة بمكة أو بمحل دون ذي طوي فإن كانت بذوي طوي أو بالابطح لم يبطل وداعه، والمراد ببطلانه بطلان كونه وداعا لا بطلان ثوابه، لأن الطواف صحيح في نفسه. وإن تركه رجع ما لم يخف فوات رفقة الذين يسير بسيرهم، ويستحب له إذا فرغ من طواف وداعه أن يقف بالملتزم للدعاء قال في الواضحة: والصق صدرك ووجهك بالملتزم ثم استلم الحجر وقبله إن قدرت على تقبيله، ثم انفر إلى بلدك فقد قضى حجك اه قلت: واستحسن بعضهم عدم تقبيل الحجر وهو معارض لقول الواضحة وهو الأحسن.

في الخروج من المسجد الحرام:

ثم ينبغي للخارج من المسجد أن يخرج من باب بني سهم، وهو باب العمرة والناس السن لا يخرجون إلا من باب الوداع تفاؤلا بالعودة إلى مكة المشرفة لأن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من جهة باب الوداع عندما هاجر إلى المدينة المنورة ثم عاد إلى مكة المشرفة وخرج في حجة الوداع من باب العمرة، ثم مات في السنة التي تليها، فإذا خرج فلا يرجع القهقري فإن ذلك مكروه، أو خلاف الأولي، وهو من فعل الأعاجم، بل يمشي مشية المعتاد، والأدب والخشوع في قلبه وكذلك يفعل في خروجه من المسجد النبوي على ساكنه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

في الخروج من مكة المكرمة:

فإذا خرج الحاج من مكة فإن خروجه من طريق المدينة المنورة كأهلها وأهل مصر والشام ونحوهم، فيتسحب له أن يخرج من كدى بضم الكاف والقصر أقل الصاوي على الدردير) قال بعضهم ملتصقا لذلك حكمه، وإنما طلب من قاصد النسك في حال الدخول أن يدخل من كداء بالفتح وفي حال الخروج من كدي بالضم للإشارة إلى أنه يدخل طالبا للفتح وملتصقا للعطايا، فإذا خرج بضم ما جازه ويكتم امره، ولا يشيع سره.

ويستحب له أن يكبر في انصرافه من الحج والعمرة على كل شرف أي مكان مشرف وأن يقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آييون، تائيون، عابدون، ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ويقول ذلك ثلاثة أيام حتى يخرج من أرض تهامة.

حكم الزيارة للمدينة:

السودانيون من الشعوب العاشقة للنبي صلى الله عليه وسلم ويعتقد كثير منهم أنه لا يتم حج بغير زيارة قبر الرسول والصلاة بمسجده أيام تطول وتقصّر ويفصل لنا الشيخ عبدالمحمود في رحلته حجة مشروعيّتها وحكمها قائلًا: وأما حكم زيارته صلى الله عليه وسلم ففيه اختلاف بين علماء الشرع فمنهم من قال بوجوبها ومنهم من قال بندبها وأكثر العلماء من الخلف والسلف قال بندبها دون وجوبها وعلى كل من القولين فهي مع مقدماتها، من نحو السفر إليها ولو بقصدها فقط دون أن يضم إليها قصد اعتكاف أو صلاة بمسجده صلى الله عليه وسلم، فهي من أهم القربات وأنجح المساعي ومن ثم قالت أئمة الأحناف: إنها تقرب من درجة الواجب، وقال بعض المالكية: إنها واجبة، وقال غيرهم منهم يعني أنها من السنن الواجبة.

في الرحلة من مكة إلى رابغ:

في طريقه إلى المدينة يوضح الشيخ عبدالمحمود قدرته على فض النزاعات وإدارة الحوار مع

الشيعة قائلًا:

اعلم وفقنا الله وإياك على الصدق وأخباره الحق وآثاره إلى خروجنا بالسفر من مكة المشرفة بعد أداء فريضة الحج إلى زيارة النبي صلى الله عليه وسلم كان في يوم الخميس لسبع وعشرين ليلة من ذي الحجة عام أربعة وعشرين من بعد الثلاثمائة وآلاف ووصولنا إلى جدة في عصر الجمعة من اليوم الثاني من سفرنا، فأقمنا فيها نحو ثلاثة أيام ثم ركبنا البحر متوجهين إلى رابغ، فوقف بناء السنبوك في البحر لفقد الريح لمدة خمسة أيام، وفيها قد هل شهر المحرم وكان معنا يومئذ كثير من الحجاج، وقد حصل لهم مع بعضهم شقاق ونزاع، ولولا حضورنا لثارت الفتنة بينهم، ثم من بعد إسكات الفريقين قد أنشأت من نفسي قصيدة في مدح سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وأنشدتها لكن ضمننت فيها شيئاً من أحوال المذكورين وتربية تخصم لمزيد التحبب والأدب مع بعضهم.

ويذكر الشيخ عبدالمحمود أنه أدار حوار مع الشيعة في طريقه إلى المدينة وضح فيه رأي أهل السنة في الرفضة قائلًا: "ثم لما أوقع الله المحبة بين المذكورين والمراعاة منهم لبعضهم قد رايت جماعة من أهل صنعاء اليمن وهم يكثرّون من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم إلا أنه لا يذكرون أصحابه في صلاتهم عليه، فقلت لأحدهم - حين رأيتهم معظما من بينه وأيضا على معرفة - لم لا تذكرن الأصحاب في صلاتكم على النبي صلى الله عليه وسلم؟ قال: مذهبنا يأبي ذلك، فقلت له: ما مذهبكم؟ قال: مذهب زيد بن علي بن الإمام الحسين، فعلمت بذلك انه من الشيعة والرفضة، ثم قلت له: إذا وصلت المدينة المنورة وسلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا هل تسلم على صاحبيه؟ قال: لا ولكن من بعده فإني أسلم على علي كرم اله وجهه، فقلت له: أين هو؟ قال: مع النبي صلى الله عليه وسلم، واستدل على ذلك بما يعتمده أصل مذهبهم قلت له هلا علمت أن الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أبوبكر، ثم عمر؟ قال: لا أعلم ذلك وإنما الخليفة علي بن ابي طالب كرم الله وجهه.

توقف السنوبك في البحر:

ولنرجع إلى ما نحن بصدده ومن بعد وقوف السنوبك عن المسير بنا في الأيام المذكورة بأسباب انقطاع الريح قد ضجت الناس بالدعاء، وتكدرت منهم الخواطر، وكثر الخوف، فاخبرت حينئذ التلامذة بقراءة مولدنا الفيض السحري والبيان السحري فلما ختموه بالقراءة ودعوا الله تعالى تيسير بعض ريح ثم أنني استغثت بهذين البيتين وهما من إنشائي:

ياسيدي يارسول الله قد وقفت
عن المسير بنا السنوبك في اللجج
غث بريح سريع كي نزورك
في روضة نورها أضوا من السرج
فازداد الريح في الحال ولم يزل في ازدياد إلى أن وصلنا رابغ.

أيام في رابغ:

ومن بعد خروجنا من البحر من السفن الصغيرة جاءت الجمال وحلمتنا إلى مدن ذلك البلد، فنزلنا قريبا من سوقه، وهذا البلد وهو ينسب لحرب وهم طوائف لا يحصون عددا، ورئيسهم القاطن فيه والقائم بأحكامه يسمى الشيخ حسين ولد سبيريك وهو رجل فصيح شجاع صاحب بأس وقوة ومال كثير، وهو أحد أيادي على باشا سيد مكة الآن وشريفها، بل وأظنه من أعظم أياديه، وفي البلد هذا موضع بقرب السوق فيه عساكر من جهة سلطان الإسلام عبدالحميد خان، وأسلحة نارية من مدافع وبنادق وغيرها، والعساكر المذكورون فهم تابعون للشريف المذكور في أمره ونهيه، ولا يخرجوا من يد رئيس البلد في أمر ما، وقد اجتمعنا به وهو فاضل وفيه نفع للحجاج وبلده مشتمل على سوق وتجارة وجامع فقام فيه الجمعة وهو خصب كثير المياه والنخل والزرع والخضر، ولاسيما البطيخ فإنه كثير جدا وأيضا الحوت، وهو بلد آمن كثير الثمرات وفيه مسيل كأنه النيل في العرض، تجري به مياه الأمطار عند نزولها من الجبال إلى البحر ولها دوي عند نزولها كدوي الرعد، وحوله زرع كأنه زراع جزائر النيل لكن مع ما ذكر من الأمن فعلى العاقل أن لا يغفل هناك عن نفسه، وكانت إقامتنا في هذه المدن إثني عشر يوما فقصر الجمال وقتئذ.

منازل طريق المدينة:

ثم جاءت الجمال وحملت القافلة بالبر إلى المدينة المنورة وذلك كان في ظهر الجمعة بعد صلاة الفرض سادس عشر يوم من محرم، فبتنا قريبا من البلد ثم أصبحنا وأقمنا إلى أن انتصف النهار من يوم السبت، ثم سافرنا وذلك كان بالطريق المسمى بالفرع بفتح الفاء وسكون الراء ثم عين مهملة، وهو مشهور في الطرق، وهو أسهلها وأكثرها ماء، وفيه عيون متفجرة نحو السبع أو الثمان ماؤها كأنه ماء النيل في العذوبة، وحول تلك العيون نخل كثير وزرع إلا أنه من جهة المخافة كغيره من الطرق، والمطلوب في هذا الطريق وغيره صحبة الزاد والأسلحة النارية والرجال وإتقاء الكلمة فمن غفل عن ذلك فهلاكه أقرب من سلامته.

وقد سافرنا في هذا الطريق بالنهار دون الليل إلى أن وصلنا المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام.

وقد نظمت المنازل التي ينزل فيها الحجاج في هذا الطريق، إلا أن مبدأ نظمي لها من جدة لكونها مبدأ سفرنا بالبحر إلى رابغ، وفي البحر لم نعرف المنازل إلا من رابغ إلى المدينة المنورة فإنها ظاهرة وقد سألنا من هناك عن المسافة البرية التي بين جدة ورابغ فقال ثلاثة أيام وهذا هو النظام المذكور:

| | |
|------------------------------|----------------------------|
| من جدة الغراء فكان السفر | لرابغ في فلك له أذكروا |
| ومنه كان نزول القافلة | في بئر رضوان دع المغافلة |
| منها أبوضباج وهو المنهل | والبعض في أم العيال ينزل |
| وذا وذاك فهما عيانان | بماء مدى الأوقات تجريان |
| ومن هنا فالمـنزل العجير | عين ولكن لها تفجير |
| وبعده العـجير كاسم الأول | لكن له الشفا أضيف فأعقل |
| من بعده النزول بئر العضب | وبعدها آبار على الأحب |
| من بعدها مدينة النبي المصطفى | صلى عليه الله ما دام الوفا |

ولنذكر بعض ما عثرنا عليه في الكتب من بعض هذه المنازل قال في الخلاصة:- رابغ بموحدة بعد الألف ثم غين معجمة واد من الجحفة ا هـ قال في حرف الألف منها دارة حجارة جبل كبير لمزينة فوق قدس مما يلي الفرع يخرج من جوانبه عيون عليها قري كالفرع وأم العيال صدقة فاطمة الزهراء رضي الله عنها والمضيق والمحضة والويرة والخضرة والفعوة وأوديتها تصب في الأبواء ثم بواد يسمى وادي حقل به قرية يقال له ويغان وخلف دارة واد فيه قري قاله عرام اهـ - ثم قال من بعد ما ذكر هذا في موضع من الحرف المذكور:- أم العيال عين عليها ساقية وسبق القول في دارة: أنها صدقة فاطمة قاله عرام وقال ابن حزم هي لولد طلحة بن عبيدالله انفق عليها ثمانين ألف دينار وعلم خراجها خاصة أربعة آلاف دينار وتسقى أزيد من عشرين ألف نخلة اهـ - وأما الآبار المشهورة بين الناس بآبار على فلم نقف على نسبتها عند العلماء لعلي كرم الله وجهه وقد سمعت بعض أهل الحجاز يشهرون ذلك المحل ببئر المآسي وبعضهم يقولون خلاف ذلك.

وأعلم أنه عند مبيتنا بالآبار المذكورة قد رأى بعض الحجاج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قبل عنقي ويقول لي جئت أيها الحبيب قد قبلناك وجميع من معك من الحجاج.

لقاء الشيخ محمد حسن السمان:

وكان دخولنا المدينة من الطريق الشرقي لأن ورودنا عليها كان من جهته ثم من بعد دخولنا في السور الأول قد جاءنا رسول فخر الأزمان، ونادرة الاقران، ونخبة أهل الشرف والشأن، سيدي واستاذي الشيخ محمد حسن السمان رضي الله تعالى عنه وعن أبنائه وطلب أن لا يكون نزولنا إلا عنده، وكان يومئذ حكم الكرنيتينة شهير بالبلد فما من حاج إلا وهو ينزل خارج البلد في تلك الأيام، وإذا أراد زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو الصلاة في مسجده فلا يكون ذلك منه إلا بنفسه فقط دون أمتعه.

ثم إن هذا الأستاذ العظيم، اللوذعي الفخيم، من اعتنائه بنا وكرمه لنا قد أنزلنا رضى الله عنه في بلاده وفي ساحة واسعة مشتملة على بسان وساقية وفيها قصر عظيم، فأقمنا فيه وحوله خيم للتلاميذ والحجاج الذين معنا، وذلك خارج السور الداخلي، فما كانت من إقامتنا في هذا المحل إلا نحو ساعة حتى جاءنا الاستاذ بنفسه ونقلنا مع وجود الكرتينة اعتمادا منه على الله تعالى إلى بيته المكرم وسوحه المعظم، ومعى ساعتئذ العابد الفاضل الصفي الكامل الشيخ محمد التوم بن الشيخ طلحة الفولاني أدام الله علينا وعليه رضوانه وأمانه، وأيضا خدامنا من التلاميذ.

في بيت أبي بكر الصديق:

فأنزلنا الاستاذ في بيت أبي بكر الصديق ودار خلافته إلى أن توفي وأنزل الشيخ محمد التوم في موضع آخر لائق به، وأعلم أن بيت أبي بكر الصديق رضى الله عنه هذا هو المشهور اليوم بزواوية السمان، وقد دخل هو فيه قدس سره الخلوة عشر سنين، وسبحته التي كان يذكر الله تعالى بها وهي إلى اليوم في زاويته وقد رأيناها وتبركنا بها، وكانت الزاوية المذكورة من قبل وجود سيدي للشيخ محمد السمان رضى الله عنه وظهوره تنسب لسيدي الشيخ عبدالقادر الجيلاني رضى الله عنه لأنه كان مقيما بها، ويقال لها أيضا المدرسة السنجارية كما في سلك الدرر، وكان سيدي مصطفى بن كمال الدين البكري رضى الله عنه إذا ورد المدينة فإنه لا ينزل في غيرها، ويقول: إنني أشم رائحة جدي أبي بكر الصديق رضى الله عنه في هذه الزاوية.

وكان جدنا الأستاذ الشهير، والقطب الكبير، سيدي الشيخ أحمد الطيب بن سيدي البشير الشريف العباسي رضى الله عنه قد جلس فيها سبع سنين من بعد أخذه الطريقة الصوفية على صاحبها نفعنا الله به، وجميع ما حصل له من الفيوضات والأسرار، والعلوم والأنوار، والرتب العلية، والمكاشفات القدسية، في هذا الموضع وهو محلنا قديما وقد أكرمنا الاستاذ بالنزول فيه لبركته وخيره ومزيد نفعه على غيره، وكفى شرفا أنه بيت أبي بكر الصديق رضى الله عنه ودار خلافته إلى أن توفي وقد أنشدت عند دخولي فيه هذه الأبيات فرحا مسرورا:

هنو لعبدى مذنب بنزوله في بيت صديق النبي أبي بكر
لو ما أراد به الإله سعادة ما كان في دار الخلافة يستقر
في ذا النزول إشارة تبدو لمن بمعاني أسرار المعارف قد ظفر
هي من يرى عند الرفيق نزوله لاشك مقبول لدى الهادي المبر

زيارة النبي صلى الله عليه وسلم:

ثم من بعد نزولي في الزاوية المباركة قد توضأت ودخلت المسجد النبي وصليت فيه تحية المسجد ويستحب أن تكون في محراب النبي صلى الله عليه وسلم أو في غيره مما قرب من الروضة، ثم من بعد التحية والدعاء الذي يكون بعدها وهو هذا: اللهم إن هذا حرم رسولك صلى الله عليه وسلم الذي حرّمته على لسانه، ودعاك أن تجعل فيه من الخير والبركة مثلى ما هو في حرم مكة الحرام، فحرمني على النار، وأمني من عذابك يوم تبعث عبادك، وارزقني فيه حسن الأدب وفعل الخيرات وترك

المنكرات، قد بادرت إلى استقبال الوجه الشريف خاشعا خاضعا، فلما فرغت من السلام عليه صلى الله عليه وسلم ألهمت من البيتين وأنا في المحل فأشدتهما وهما:-

في حال بعدي ناظر لجمالكم واليوم إنني واقف بالباب
انظر إلى بنظرة أحيا بها وأفوز في الدنيا ويوم مآبي

فحصلت منه لي صلى الله عليه وسلم عند ذلك نفحات وبركات، ثم سلمت على صاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وتوسلت بهما إلى الله ورسوله فيما له طلبت وقتئت ثم رجعت إلى محل الوقوف الأول فأشدت أيضا:

يأيها المقصود من كل الوري أني وقفت ببابكم أرجو القرى
وتركت أولادي وحاشتي ومن يعزي إلي من الورى كلا ورا
وأنتكم بمحبة قلبية وبها فدمع العين جهرا قد جرى
أنا ضيفكم ونزيلكم أنا عبدكم أرجو شفاعتكم وفوز أكبر
وأكون في الدنيا بها وكذا غد في القرب عندك مثل من لك أبصرا

ثم انصرفت مراقبا الحجر، فجلست في موضع من المسجد ملاحظا للروضة الشريفة وكذلك حياته المكرمة في قبره المكرم صلى الله عليه وسلم يعلم بزائريه على اختلاف درجاتهم وأحوالهم وقلوبهم وأعمالهم.

أخبار المدينة وعساكر السلطان في موكب الوداع

ثم من بعد الخروج المذكور قد أحضر أئينا تلميذنا الصالح الصفي الكامل الوفي الشيخ محمود بن عبدالقادر بن عبدالجواد المدني فرسا فركبنا عليها لداء بنا، ولولا ذلك لما ركبنا عليها في هذا الموضع الشريف، وقد جاءنا للوداع عند ذلك كثير من أهل المدينة نفعنا الله بهم من علماء وأشراف، ولم يزلوا يمشون معنا وقد الححت في رجوعهم فلم يطب خاطرهم بذلك وذلك لشدة محبتهم، فسلك بنا الخبير طريق سيدي عبدالله والد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومالك ابن سنان والد ابي سعيد الخدري، فودعناهم ومر بنا أيضا بزواية سيدي الشيخ عبدالقادر الجيلاني رضي الله عنه.

ثم جاءت العساكر السلطانية ومشت أمامنا بالأسلحة النارية تعظيما وإجلالات، ولم يخطر لنا أن ذلك يكون لنا ولم نر له طريقة مطلقا إلا أن نقول إنه إكرام من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يتفق لأحد قبلنا ولا معنا مثل هذا مع كثرة الأخيار والعلماء والصالحين (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)

وشاهد ما ذكرناه من أن هذا إكرام من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن بعض الحجاج المذكورين بالخير قال لي: قد رأيت عند وداعك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه صلى الله عليه وسلم خرج إليك من باب فاطمة الزهراء عليها السلام وضمك إليه وقد أعطاك ثلاث قطع إحداها خضراء والاثنين حمر وكل واحد من الثلاثة فيها شيء ولكن لم أطلع عليه، فحمدت الله تعالى على ذلك وأرجو

منه الزيادة لي بجاه هذا النبي الكريم، ومصدق هذا أيضا أن بعض المجاورين بالمسجد النبوي قال لي: قد سمعوا في هذه الليلة في جهة الحجرة صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول وكأنه يتحدث مع شخص آخر: اليوم سفر السودانين ولم تكن يومئذ بالمدينة قافلة غير قافلتنا.

ثم إن العساكر السلطانية المذكورة لم تزل معنا إلى أن وصلنا المناحة التي بها القافلة، وقد نبهت الإعراب الحاملين لنا على إكرامنا وإكرام من معنا من الأصحاب والحجاج فامتثلوا أمرهم وما فعلوا معنا إلا خيرا، ثم رجعت العساكر وهم في غاية المحبة حتى وأن البعض قد أخذ الطريقة عنا، وذلك كخير الله عبدالله، وجعفر موسى الكاتب، فبتنا هناك.

اهل المدينة انتمو اسيادي

فلما أصبح الله بالصباح لحقنا أهل المدينة أفواجا أفواجا ومن بينهم ما لنا فيها من الخلفاء والتلامذة، وأيضا السيد أحمد السمانى أطال الله عمره للوداع، ثم جاءنا ونحن هناك محتسب السوق وحاكمه يوسف شصلي بشين ثم صاد وبعدها لام، والمذكور من أختيار الأتراك، وبيته بقرب مسجد سيدنا عمر رضي الله عنه وكان قبل مجيئه هذا للوداع قد جاءنا زائرا في زاوية الإمام إبي عبدالكريم القطب السمان قدس سره بما يحتاج إليه الفقراء في سفرهم هذا من دقيق القمح، فجزاه الله تعالى خيرا على ذلك ولم يزل دقيقه معنا إلى أن وصلنا محلنا طابت.

رحلة العودة من المدينة إلى سواكن:

ثم من بعد ذلك قد سافرنا وذلك كان يوم الأحد الواقع تاسع يوم من صفر وقد سلكننا الطريقة التي سلكنها أولا وهي طريقة الفرع وهي أحسن الطرق يومئذ وما زلنا مسافرين على أمن وراحة نفس إلى أن وصلنا رابع، وقد حبيب الله تعالى فينا العرب الذين معنا وهم كثيرون، كبتال وهو رئيسهم، وعلوش، وظبيب بالطاء المشالة، وعائش، وسمران، ونومان، وغيرهم، وقد رأيت رجالا كحال التلامذة من صدق النية وحسن الأدب حتى ولو تعدي عليهم من الحجاج أحد في شيء أو أذي أحدا منهم فلا يردون، وما ذلك إلا من لطف الله تعالى بنا، وبركة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولولا ذلك لفعلوا بنا من الأذي والقتل ما فعل في غيرنا من قوافل الحجاج.

ثم من بعد وصولنا إلى رابع واجتماعنا بالشيخ حسين ولد مبيريك قد دخلنا في السفن إلى جدة، وعند خروجنا منها تلقانا تلميذنا وخليفتنا الصادق الصالح الشيخ عبدالقادر دورة ابن الشيخ محمد صالح عبدالله وأنزلنا عنده وأكرمنا، ولم يزل معتتيا بنا إلى أن جاءت الوابور وفيها صار توجهنا وذلك ليلة الثلاثاء تسع عشرة ليلة خلت من صفر.

وسافرنا في لجج البحر نحو أربع عشرة أو خمس عشرة ساعة، ومنها صار خروجنا ثم دخولنا الكرنيتينة بأمر الحكام، وقد حصل لنا فيها إكرام كثير من حكامها، وهم كالسيد احمد افندي عثمان الأزهرى معاون بالصحة البحرية، وأيضا عبدالدائم أفندي وفيروز أفندي، ولم يزلون معنا كذلك إلى أن تمت أيام الكرنيتينة العشرة.

في الرحلة من سواكن إلى أم مرجي:

ثم من بعد خروجنا من الكرنيتية قد توجهنا من السفاين إلى موضع الجمارك وهو بالبر بخلاف محل الكرنيتية فإنه في جزيرة من جزائر البحر فلما فرغنا من ذلك الموضع المذكور وكان قد حصل من أهله لنا خاصة بعض أكرام وهو تركهم لبعض الأمتعة من الجمرك سافرنا إلى موضع الوابور وبه صار سفرنا إلى بلادنا.

فلما وصلنا كبوشية تلقنا الفاضل أحمد أفندي ميرف والمذكور من التلامذة المباركين، فاخرجنا من الوابور بالحلف، وأقامنا في بيته بكبوشية في إكرام وإجلال وقد حضرنا عنده ليلة المولد الشريف أثنى عشرة من ربيع الأول.

ولترتب من هنا من صار نزولنا عندهم من الفضلاء إلى طابت المحمية، وأن هؤلاء الذين سنذكرهم بأسمائهم قد بالغوا جميعا في إكرامنا وإجلالنا، كل واحد منهم بما استطاع من ذلك، ومنهم من زاد على غيره بالهدية وبذل المال، نسأل الله تعالى لهم الجميع رضاه ورضاء رسوله والحشر في زمرة الناجية يوم القيامة، وأن يكرمهم بالفوز العظيم وجنات النعيم وأن يديم عليهم إصلاح الحال وأن يبلغهم حسن الآمال.

فأول نزولنا كان عند الفاضل أحمد أفندي كما ذكرنا ثم من بعده عند الرجل الصالح تلميذنا الشيخ عبدالباقي بن الرضي بحلة الشيخ من المسيكتاب، وقد أخذ علينا الطريق في هذا الموضع جماعة لا يحصون عددا وقد خلفنا هناك تلميذنا الصادق الفاضل العالم الشيخ نور المدينة حسن) وهو ابن اخت الشيخ عبدالباقي المذكور وتلميذه في القرآن.

ثم دخلنا في الوابور من شندي وذلك عند صلاة الظهر وعند غروب الشمس أو بعدها يسير نزلنا منها فصار مبيتنا عند الأخ الصالح الكامل والتقى الفاضل الشيخ عبدالقادر بن والدنا الشيخ عبدالرحمن ثم عند الشيخ الفاضل الشريف بن الشيخ محمد بن عبدالجبار الطيبي ثم بولد رملي عند الذاكر الشاكر المبارك الشيخ نورالدائم بن أخي الشيخ الصديق الطيبي.

زيارة القطب سيدي أحمد الطيب:

ثم من بعده سلطنا طريق الغرب لأجل زيارة الآباء والجدود نفعنا الله بهم، فكان نزولنا عند المبارك الكريم المعتمد الشيخ الريح بن الحاج أحمد السنهوري () ومنه توجهنا في جمع كبير من فقراء الطريقة إلى ضريح القطب الرياني، والغوث الرحماني، سيدي واستاذي وجدي الشيخ احمد الطيب بن الشيخ البشير السماني قدس سره، فلما وصلنا ساحتة ذكر هناك الفقراء ذكرا كثيرا ونالوا مددا كبيرا ثم دخلنا القبة فزرننا الأستاذ الأعظم أولا، ثم الوالد رضي الله عنه، ثم بقية الأعمام وقد أشدت

| | |
|-------------------------------|----------------------------------|
| قد جئناكم من خير من وطئ الثرى | منو علينا بالإفاضة والقرا |
| انتم ملوك الصالحين وسادة | إرشادكم مشهور من بين الوري |
| وابوكم الاستاذ قطب دوائر | الصلحاء طرا في الأراضي بلا امترا |

في الرحلة من أم مرجي إلى طابت المحمية:

ثم من بعد زيارة هؤلاء السادة الكرام والأولياء العظام زرنا الفاضل والشيخ الكامل الشريف ابن الاستاذ الوالد رضي الله عنه، وقد وجدناه حينئذ مريضاً، ثم بقية الأعمام والأجداد، وقد دعونا لمن هناك من الإخوة والخلان والجيران رحمة الله عليهم أجمعين.

ونزلنا في هذا المحل كان عند الورع التقي الشيخ زين العابدين بن الشيخ أبي الصالح الطيبي لأنه أول من بادرنا هناك وإنشرح صدره لقدمنا، ثم من بعده عند الفاضل الفقيه أحمد بن محمد بن الولي الكامل الحاج أحمد الشهير بالبقاري تلميذ القطب العارف سيدي الشيخ محمد السمان رضي الله عنه، ثم عند خليفتنا الفاضل الشيخ الصديق ابن خليفتنا الشيخ محمد عوض السيد السرورابي رحمه الله تعالى بجزيرة أم طريف، ثم عند ولدنا المبارك محمد بن مقبول ولد أحمد ابن الولي السرورابي ثم عند الحبيب بن الحبيب الفاضل الفقيه محمد بن الفقيه عبدالمحمود ولد الطيب ولم يكن نزولنا عند من ذكرناهم ومن سنذكرهم إلا عن طلب منهم ومحبة.

ثم من بعده صار نزولنا عند الكامل الصالح العفيف الكريم مربي المريدين وملجأ القاصدين حبيبنا وصديقنا الشيخ عبدالله بن الفقيه الامين ولد أم حقين نفع الله به عباده، والمذكور قد أهدي لنا هدية واسعة هو ومن معه من بينهم أخيه الولي الكامل الفقيه المصطفي رحمه الله، والفقيه محمد المبارك، والشيخ الصادق، وابن العمم الفاضل الفقيه احمد بن الفقيه ناصر الجموعي، ثم من بعده قد قصدنا زيارة أبيه والشيخ عبدالمحمود أبي شيبه العركي وتوجهنا إلى أن كان نزولنا عند الشيخ العباس (الدعيته) خليفة الشيخ عبدالله المذكور.

ثم دخلنا البقعة وصار نزولنا فيها عند تلميذنا الفاضل العاقب ولد نعيم، والفاضل الحاج حسن ولد حضرة، والحاجة السارة بنت عبدالدائم، كل واحد من هؤلاء في منزله جماعة من التلامذة وأنه قائم بما فيه كفايتهم من أوجه الإكرام، وقد أرسل لنا ونحن هنا بعض من الفضلاء والأدباء قصائد مشتملة على تهنئة وثناء منها قصيدة الأخ الصالح الحاج مدثر بن إبراهيم الحجاز وهي طويلة ونذكر بعضها منها على سبيل الاختصار وزيادة ففي المحبة في قلوب الأحرار والأخيار:

يا بها المحمود جاء حديثكم عندي فطاب ولم يكن أمراً سدي

ثم من بعد ذلك جاءنا ذو المآثر الجليلة والفضائل الجميلة الزبير رحمة باشا، فطلب قدومنا إلى محله، فذهبنا إليه ومن معنا من التلامذة، وقد أكرمنا غاية الإكرام، وقد جاءنا ونحن عنده شيخ الإسلام وبهجة الأنام الشيخ محمد البدوي حمى الله به الدين، ونفع به سائر المؤمنين زائراً فأخذ معنا جلسة مباركة كلها في الله تعالى، وقد سمع بعض دواويننا فلذ له ذلك وأثني بما لا مزيد عليه من الثناء.

ثم من بعد ذلك قد خرجنا من مدينة امدرمان وفيها قد أخذ علينا الطريق جماعة وخلفنا فيها خلفاء ومن بعد خروجنا المذكور صار نزولنا عند تلامذتنا الكرام الحاج محمد بن الحاج صغيرون العودي وأولاده الشيخ عبدالمجيد والشيخ عثمان، ثم إلى الفاضل الشيخ يوسف بن أحمد بن الشيخ مطيع، ثم إلى الشيخ محمد بن أحمد ولدا الداقريس المقدابي، والمذكور هو وبنو عمه قد أهدوا لنا هدية واسعة، ثم توجهنا إلى خليفتنا الصالح العالم العلامة الشيخ حامد بن عطا الله فأكرمنا وأهدى لنا، ثم إلى منزلنا

بجار النبي فأقمنا فيه شهرا، ثم إلى الخشوماب الذي فيه أحبانا بولد حسن، ثم إلى الفاضل النور وله عبدالقادر والمذكور وهو أحد التلامذة المباركين، ثم إلى ولدنا في الطريق عبدالقادر ولد محمد ولد مضوي بهزار النائم، ثم إلى الفاضل التقي العالم المبارك خليفتنا الشيخ عبدالدافع ولد مضوي بن الفقيه محمد الأغبش، ثم إلي تلميذنا محمد ولد علي ولد سليمان ثم إلى فضل السيد محمد بروق وهؤلاء الثلاثة قريتهم التي هم فيها واحدة وتسمى الخيران، ثم إلى تلميذنا الوفي الصفي الكريم الشيخ عبدالماجد بن الطيب ومنه صار نزولنا عند الحبيب المبارك الشيخ تاي الله ولد الفقيه عبدالله النفيدي ومنه إلى طابت المحمية، وعند قربنا منها قد تلقانا سكانها وأولادنا في جمع كبير على حالة محبة وإجلال كبير من التلاميذ وغيرهم، وقد دعونا للجميع بالدعوات الصالحات المباركات والتي نرجو من الله عز وجل قبولها ودوام نفعهم وغيرهم من إخوانهم في الحياة وبعد الممات، ثم من بعد ذلك قد كان نزولنا بموقعنا على حالة سرورية وخيرات متواترة سرية وجهرية وقد اجتهد جميع سكان طابت من أولادنا وغيرهم من الأحاب والتلامذة في إكرامنا وما تأخر عن ذلك أحد إلا لعذر، ونسأل الله تعالى أن يكرمهم في الدنيا والآخرة بما فيه رضاه أنه على ما يشاء قدير وهو المجيب لمن دعاه.(انتهى النص).

نتائج الدراسة:

يتضح من عرض الشيخ عبدالحمود في القسم الأول والذي يشير فيه إلى خروجه من قريته وإكرام القرى المجاورة له والذين رافقوه من قرية إلى قرية إلى ما عرف حينها بزفة الحج وهي تظاهرة كبرى تبلغ الآلاف عند ذوي المكانة، حيث يخرج الناس مودعين الحاج في موكب كبير رجالا ونساء وأطفالا، يعبرون عن أشواقهم لهذه الشعيرة بكاء ومدحا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ينتقلون من قرية إلى قرية وينزل الحجاج بها فيكرمون ويهدي لهم شيء من المال والرزق وعرض التجارة كالسمن والعسل ما يبيعونه في الحجاز ويتهادون ببعضه ويتبادلون المنافع، وهذه مظاهر اختفت في زمان الناس هذا، وبالطبع في زماننا هذا زهد في إشهار الحج وفيه فائدة إلا أن الفائدة في إشهاره أعظم فإن تعظيم شعائره الله من تقوي القلوب، كما تعمل على تعلق أفئدة المسلمين بالشعيرة، ويتعلم منها الصبية عظم الشعيرة وركنيتها في الإسلام، كما يتضح أيضا إكرام أولي الأمر والسياسيين لهذه الشعيرة وذلك عندما قابل الشيخ عبدالحمود الزبير باشا والحاكم العام رغم أن الأخير على غير دين الإسلام.

في القسم الثاني يصف الشيخ عبدالحمود الطريق ويسمى قراه ومحطاته من الخرطوم إلى عطبرة ومن عطبرة إلى سواكن ويلتقي في سواكن عليه القوم وهنا يرد ذكر أمونة بت عبود وكيف إنها تأثرت بدعوة الشيخ الاستاذ احمد الطيب البشير ومن خلال سيرة الشيخة امونة بت عبود يتضح لنا انها قامت بزراعة القطن بوادي بشارة بالقرب من شندي ونسجت إحرامات الحج وأقامت الخلاوي ولما كبرت مقدراتها وعلمت ان جميع حجاج السودان وغرب إفريقيا يتجمعون في سواكن ذهبت إلى شرق السودان وزرعت القطن واقامت محالجه ونسجت الإحرامات وهي تجارة رائجة. وبنيت الخلاوي فاستفاد ابناء السودان من علم حجاج- غرب إفريقيا وأمونة المذكورة من سوراب الشايقية وزوجها محمد أزيق قاما بنشاط زراعي وصناعي وتجاري وتعليمي يجسد فوائد رحلة الحج.

في القسم الثالث يصف الشيخ عبدالمحمود الرحلة من سواكن إلى بورتسودان إلى جدة حيث قدم وصفا دقيقا للأبنية والعمران في جدة والطرق الصوفية والتكايا التي نزل بها خاصة تكية السيد أحمد بن إدريس الفاسي، وذكر أن مدينة جدة ومنذ ذلك التاريخ بها أبنية عالية ذات طوابق متعددة وفيها سوق رائجة وأجناس من البشر متعددة كما وصف حاراتها وذلك بالإضافة إلى ماسبقت الإشارة إليه من وصف سواكن وبواباتها وأبنيتها وقد ضم هذا القسم الإحرام بالحج إلى مكة ووصف الطريق إليها وقد عجز هذا الجزء بالفقه ووصف المشاعر وخطوات الحج، فالواقف عليه لا يحتاج لفقه الحج ولا لكيف يؤديه، فالمطلع عليه كأنه حضر دورة تدريبية في مناسط الحج، فقد كان الوصف ممتزجا بالترجيحات الفقهية في أركان الحج ومنذوباته، الطواف والسعي والمبيت بمكة والوقوف بعرفة والذهاب إلى مزدلفة والجمرات وطواف الوداع وغيرها.

وفي القسم الرابع يصف الشيخ عبدالمحمود الطريق إلى المدينة. وقد كان وقتئذ بحرا وفي هذه الرحلة تجلت حكمة الحج في التواصل والاتصال حيث قام الشيخ بإصلاح ذات البين وفض النزاعات بين الحجاج الأفارقة، كما أنه حاور الحجاج اليمانيين في مذهبهم الزيدي الشيعي وأظهر براعة في الاستدراج والقدرة على إدارة الحوار وهي فائدة من فوائد الطرق القديمة التي تتيح التواصل والتدماج بين المسلمين والتعرف على مذاهب المسلمين المختلفة. وفي هذا القسم تدفقت شاعرية الحاج عبدالمحمود الحفيان بالشوق والوجد فأظهر قدرة على عرض الشعر ولا سما به لفظا ومعنى وحسن مبنى. وفي القسم الخامس والذي تضمن رحلة الأوبة من المدينة إلى سواكن يستخلص القاريء من خلال رواية الشيخ تقدير العرب، السعوديين للسودانيين من ذلك العهد، وتقدير السعوديين للسودان من دون الشعوب الأخرى بالإضافة لأدب السعوديين الجم يقول وقد رأيت رجالا كحال التلامذة من صدق النية وحسن الأدب، ولو تعدي عليهم من الحجاج في شيء أو أذى أحدا منهم فلا يردون "

ولم تكن للشيخ عبدالمحمود ذكريات في رحلة الأدب إلا في سواكن حيث عفاه أهل الجمارك من جمركة بعض بضائعه، ثم عندما نزل في شندي أكرم الناس وفادته وأهدوه المال والمتاع إلى أن وصل ديار نشأته في ود رملي حيث عمه الصديق وأبناءؤه ومنها إلى أم مرعي كما قابل في الخرطوم الزبير باشا مرة ثانية وقابلته قبل دخول طابقت زفة التهئة بالقوم من جميع أهل القرى والتلاميذ.

وإجمالا وفي ختام هذه السياحة فإننا نستشف من هذه الرحلة أن الحج مناسبة دينية عظيمة عند السودانيين وعند الإفريقيين عامة وأن الحجاج بما فيهم الشيخ عبدالمحمود كانوا أعلم الناس وأقدرهم على الإنفاق لذلك استفاد الناس منهم في طريق حجهم الدين علما وروح تدين، وتبادل عروض التجارة فعرفوا منتجات أرض الإسلام وتعرفوا فيها على عقائد الناس وطبائعهم. ولقد كانت لطرق الحج هذه دور في التواصل بين أجزاء السودان والقارة قاطبة وساهمت في الإندماج الثقافي بين المسلمين وعرفت المسلمين على عادات وطبائع البعض وساهمت في تعلم اللغات واللهجات المختلفة وخلقت نوعاً من التواصل الوجداني بين المسلمين.

ومن ناحية أخرى فقد ساهمت وسائل المواصلات الحديثة في تسهيل الحج لكنها حرمت المسلمين من التواصل بين الأقاليم المختلفة، فالآن أصبحت فوائد شعيرة الحج لازمة لشخص الحاج في

الوقت التي كانت فيه هذه الفوائد متعددة للمجتمعات المسلمة في كافة إفريقيا خاصة بعد تدخل الدولة الحديثة والاقتصاد الحديث في تنظيم الحجاج وتأطيرهم حجاج كل بلد وكل ولاية وكل قرية على انفراد.

الهوامش والمراجع

- إبراهيم الكبري: أدب الرحلة عند الشيخ إبراهيم الياس الكولخي رسالة ماجستير جامعة بايرو ٢٠٠٧م.
- أحمد الصافي: حاشية الصافي على شرح الجلالين. نسخة يدوية في مكتبة السادة آل الحجاز مدثر.
- جلال الدين السيوطي: تنوير الحوالك بشرح الإمام مالك. نسخة خطية، مكتبة السادة آل الحجاز مدثر.
- حسن محمد حسن: التالكي وشخصيته الأدبية، بحث ماجستير غير منشور.
- الشيخ عبدالمحمود الحفيان: الدرّة الثمينة في أخبار الرحلة إلى مكة والمدينة، نشر مشيخة الطريقة السمانية سلسلة المطبوعات (١٧) دار جامعة القرآن الكريم للنشر ١٩٩٦م.
- صالح أحمد ابوالفتح: كتاب الرحلة الحجازية للشيخ إبراهيم الياس الكولخي ورقة بحثية أعدت لمؤتمر الحج بجامعة إفريقيا ٢٠١٦م.
- عبدالرحمن أحمد عثمان: الطرق الصوفية بالسودان، الذكر والذاكرين ٢٠٠٧م.
- عبدالله حمد الحقييل: أدب الرحلات فن متميز: نقلا عن آدم عبدالله أدب الرحلات في مناسك الحج ورقة لمؤتمر الحج بجامعة إفريقيا العالمية (٢٠١٦م)
- عبدالله موسي دستو: لب اللب في شرح منظومة روح الأدب: شركة أبناء الشريف الأنصاري ٢٠١٠م.
- عبدالمحمود نورالدائم: أزاهير الرياض.
- عبدالمحمود نورالدائم: العرف العطر في مدح جناب البشير النذير.
- عبدالمحمود نورالدائم، نقيس القصب في شرح جالبية الكرب.
- غازيتة جمهورية السودان الدار القومية للوثائق ١٩٠٦م / ١٩٠٧م.
- مجذوب مدثر الحجاز، مسور الرقيم في سيرة مدثر إبراهيم.
- محمد المسعودي: بناء الرحلة الحجازية في كتاب الحج إلى بيت الله الحرام، مؤسسة مؤمنون بلا حدود (٢٠١٦).
- محمد غبريم الداغري: النوافح العطرية المختصرة في النفحة العنبرية.
- محمد كامل حقة. الرحلة الحجازية ومدح خير البرية، في طرق الحج الإفريقية، ١٩٧٦م
- محمد نور ودضيف الله: الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين.